مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 19 عدد: 01 جوان 2023
العنوان: من علماء الجزائر الشيخ أبو راس الناصر... ص.ص 712- 733.

من علماء الجزائر
الشيخ أبو رأس الناصر المعسكري: 1737 / 1823 م

بونقاب مختار
جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
mokhtar.boungab@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2022/12/31؛ تاريخ القبول: 2023/05/02

Distinguished Figures in the Algeria
Cheikh Abou Ras Enaceri [1737 - 1823]

Boungab Mokhtar,

Abstract:

The Religion of Mascara had been the scene of a huge cultural movement during the Ottoman era which had propelled it to the rank of a scientific centre par excellence. This is mainly due to the diversity of its religious and educational institutions on one side, and the consequent number of its Chioukhs and Ulemas of great renown on the other side.

The Cheikh Abou Ras Enaceri counts among the polymaths of the city of Mascara in particular and of whole Algeria in a general way. He is part of this generation of encyclopedic scholars who had marked their time in number of books and manuscripts made in various arts and sciences.

The Cheikh Abou Ras Enaceri El-Mouâaskari was born in 1737 . He grew up in an environment conducive to knowledge and piety. However, it did not prevent the young boy AbouRas to taste the bitterness of poverty and the orphanage. During this hard period of his life, he had learned the Holy Quran from the Ulemas of Mascara City.

Later, he headed towards the province of Mazouna in order to learn and to apply more in the field of Islamic theology. In addition, and through his many travels, the Cheikh Abou Ras Enaceri comforted his scholarship thanks to his rapprochement with imminent Ulemas from different

countries: Morocco, Tunisia, Egypt, Syria, Palestine and last Mecca..

The Cheikh Abou Ras Enaceri held several professional positions. He practises first in Justice. Then later, he devoted himself and in a definitive way to teaching for a period of 36 years. His notoriety as professor emeritus increased over the years in such a way that the number of his disciples reached the figure of 780. This meritorious apogee consequently attracted the attention of all the governors of his time who ended up having him a seat especially for his classes. Also, we built him, in recognition of his unparalleled sacrifice and dedication, the library of the "Four Branches of Islam المذاهب الأربعة" close to his "Zaouïa", the current mausoleum "SidiBouras" in the neighbourhood of Bab Ali.

The Cheikh Abou Ras Enaceri El-Mouâaskari died and was buried in his "Zaouïa" in the year 1823, bequeathing an invaluable legacy made up of unpublished works in various fields of study: mysticism, religion, history, political science, theology, poetry, astronomy….

Keywords: The Cheikh Abou Ras Enaceri; El-Mouâaskari; the Ulemas; Zaouïa; Algeria

الملخص:

كانت منطقة معسكر خلال العهد العثماني مسرحا للكثير من الأحداث الهامة والتي جعلت منها حاضرة ثقافية بامتياز، ولعل مرجع ذلك هو توفرها على مجموعة من المؤسسات الدينية التعليمية التي ساهمت في نشر العلم والثقافة من جهة، وإلى وجود جيل من الشيوخ والعلماء من أصحاب السمعة والمكانة والذين أسهموا بأفكارهم ومؤلفاتهم في تفعيل الحركة العلمية بالمنطقة خاصة، وبالجزائر عامة.

الشيخ أبو رأس الناصري هو أحد علماء منطقة معسكر، والجزائر عامة، فقد كان ينتمي إلى جيل من العلماء الموسوعيين والذين ساهموا مساهمة فعالة في إثراء الحياة الثقافة والفكرية بمؤلفاتهم وكتاباتهم في مختلف العلوم والفنون.

ولد الشيخ أبو رأس الناصري المعسكري في حدود سنة 1737، وعاش يتيما، وعرف حياة الفقر والعوز، لكن ذلك كله لم يمنعه قط من أن يصل إلى ما وصل إليه كعالم حافظ متميز، فبعد أن حفظ القرآن الكريم على شيوخ معسكر، انتقل إلى مازونة لتلقي العلم على شيوخها وعلمائها .

وقد انتقل – على غرار طلبة العلم والعلماء – إلى عدة مناطق، ناقش وناظر العديد من العلماء من مختلف الأقطار والأمصار.

شغل مناصب عدة في مقدمتها التدريس وذلك خلال 36 سنة، وقد وصل عدد طلبته إلى 780 طالب لأخذ العلم عنه مما جعل الحكام الأتراك يهدونه كرسيا ليستعن به على تقديم الدروس، كما جهزوا زاويته بمكتبة حوت أمهات الكتب و نفائس المخطوطات سميت بمكتبة المذاهب الأربعة.

توفي الشيخ أبو رأس الناصري سنة 1823م، ودفن في زاويته وسط مدينة معسكر تاركا عددا كبيرا من المؤلفات في مختلف التخصصات، حقق بعضها ونشر، ولا يزال الكثير منها في حكم الضياع.

الكلمات المفتاحية: الشيخ أبو رأس الناصري؛ المعسكري؛ العلماء؛ زاوية؛ الجزائر.

مقدمة:

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني بروز عدد من العلماء الأجلاء الذين أسهموا في تفعيل الحركة الثقافية والفكرية، نتيجة لمؤلفاتهم وكتاباتهم في مختلف العلوم والفنون، ولعل من بين هؤلاء نذكر الشيخ أبو رأس الناصري المعسكري الذي كان يلقب بالحافظ، هذا العالم الذي تجاوزت شهرته حدود البلاد، وذاع صيته في كل الأرجاء .

إن هذه الشخصية حضت باهتمام الكثير من الدارسين، وخصصت لها العديد من المقالات والتأليف، غير أن الجزء الكبير من إنتاجه يظل مجهولا، أو غير محقق، من هنا جاء موضوع هذا البحث الذي اخترنا له شخصية أبو رأس الناصر المعسكري، للوقوف على دور علماء

منطقة معسكر خاصة، والجزائر عامة في الحياة الثقافية والفكرية، بل وحتى السياسية، وكذا علاقة العلماء بالسلطة العثمانية في الجزائر من خلال أفكارهم ومواقفهم .

إن اختيارنا لهذا الموضوع ناجم عن نزعة موضوعية ترمي في غايتها إلى تعميق معارفنا لهذه الشخصية والاطلاع على آثاره، ونوع العلوم التي تناولها بالعناية، وما مدى اطلاعه على علوم العصر وفنونه ؟

إن ما يسترعي الانتباه في هذه الشخصية، هو كثرة المؤلفات التي خلفها وتباين الإحصائيات التي حاولت ضبط مؤلفاته، حيث عدد له الدكتور يحيى بوعزيز في كتابه (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة) مائة وستة وثلاثون مخطوطة (يحيى بوعزيز، 1995: 244).بين صغيرة وكبيرة، بينما تذكر دراسات أخرى أنها بلغت الستة والستون مؤلفا .

وهذا الاختلاف يوحي بوجود الكثير من المؤلفات التي نسبت إلى أبي رأس، إما بالخطأ، أو أنها ديست له لأغراض مقصودة . من هذا المنطلق كان علينا الوقوف على معرفة الجوانب التي ميزت حياة أبي رأس الناصر، وضمن أية خانة يصنف من بين العلماء، نظرا لكثرة المؤلفات التي خلفها، وفي شتى العلوم والفنون: الفقه، النوازل، والتاريخ، والفلك، والجغرافيا ...

تسعى هذه الدراسة للتعريف بتاريخ معسكر وأعلامها، وكذا لإخراج تراث المنطقة من دائرة النسيان .لذا حاولنا فيما توفر لنا من مصادر ومراجع الوقوف على الدور الذي لعبته منطقة معسكر في حياة الجزائر الثقافية، والعوامل التي أثرت في حياة الشيخ .ومن خلال ذلك الإجابة عن مجموعة تساؤلات مثل:

من هو الشيخ بوراس ؟ وكيف نشأ ؟ ما العوامل المؤثرة في حياته الشخصية والعلمية ؟ ماهي مواقف الشيخ من قضايا عصره على

الصعيدين الداخلي والخارجي؟ وفيما تتمثل الآثار والمؤلفات التي خلفها ؟

تعريفه:

هو العلامة محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري الجزائري، الملقب بالحافظ لغزارة علمه، كما كني بأبي راس لكبر رأسه(أبو راس الناصري، 2002: 32). ينتمي أبو رأس أحمد الناصر إلى جيل نادر من العلماء الموسوعيين الذين طبعوا عصرهم بعديد التأليف والمصنفات التي جعلت معاصريه يعتبرونه مجدد القرن الثالث عشر هجري، مثلما وصفه محمد بن يوسف الزياني في دليل الحيران (ناصر الدين سعيدوني، 1999: 71)، بالرغم من ظهوره في عصر عرف بانتكاساته الثقافية التي عمت كل العالم العربي والإسلامي . وقد وصفه أبو حامد المشرفي بغزارة مؤلفاته بقوله: " أن تآليف شيخه أبي رأس الناصر أوشكت أن تزيد على عدد أيامه (سعيدوني، 1999: 462).

أما حمدادو فقد عرفه قائلا (إننا أمام عالم لا ريب يمتاز ببعده وفكره الإسلامي، ولا شك أيضا في أهميته كمعلم مجدد في سياق التواصلية الثقافية التقليدية، وعلم يرشد بأفكاره ويهدي بمواقفه، وغيرته على الوطن والدين). (حمدادو ، 2003 : 58).

نسبه:

هو عبد الله محمد أبو رأس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل (أبو رأس الناصر، 1990: 25). ويذكر أبو رأس عن نفسه أنه ينتمي إلى أسرة شرف ينتهي نسبها إلى آل البيت، حيث يؤكد أن نسبه متصل إلى عمر بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام(أبو راس الناصر، 2002 :25).

يستند أبو رأس الناصري في تأكيد نسبه على شهادة العالمين الجليلين الشيخ مصطفى بن المختار جد الأمير عبد القادر، والشيخ عبد القادر السنوسي، حيث يقول في ذلك: " هذا والحمد لله، والمنة له، قد شهد لي بالشرف السني، والمنتمى الحسني، والنسب النبوي، والبيت الكريم العلوي الشيخان الشامخان الراسخان الأول: العارف بالله الواحد القهار، الطائر صيته بالولاية في كل الأمصار، في الوبر والمدر وسائر الأقطار، مجد النظار، الذي اختير لولاية الله في عباده أي اختيار الشيخ مصطفى بن المختار الأسعد الرباني والهيكل الصمداني ...، والثاني: من لنا خلقا من الحسن اليوسى الشيخ الكبير العالم سدي عبد القادر السنوسي، لقد كان له في العلوم باع له مساق (أبو رأس الناصر، 2002: 29، 30).

ويتحفظ بعض الباحثين على نسبة أبو رأس إلى الشرف، حيث يقول أبو القاسم سعد الله: " ولكن إذا كنا لا نشكك في موهبته كنسابة، فإننا نشك في نسبه إلى الشرف (أبو القاسم سعد الله، 1981: 89).

أما الغرض من ادعاء الشرف والانتساب إلى آل البيت كان من مميزات هذا العصر نظرا لما يؤملونه من حظوة ومكانة يوفرها لهم هذا الانتساب عند الناس (عابدين بن حنفية، 2004: 23).

وفي كلا الحالتين فإن هذا التحفظ أو التشكيك لا يقومان على سند أو حجة ثابتة، غير أننا نعتقد أن شهادة مشايخ عصره له بذلك لا يمكن إنكارها خاصة إذا كانت من شيوخ المنطقة أمثال مصطفى بن المختار، والشيخ عبد القادر السنوسي، وقد أكد شهادتهما محمد بن يوسف الزياني أثناء تأبينه لأبي رأس بقوله: ... وفي وقته مات مجدد القرن الثالث عشر ذو التأليف العديدة، والتصانيف المديدة، الشريف الأمجد، العلامة الفرد الحافظ أبو رأس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن ناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الجليل الراشدي المعسكري، والذي ليس له نظير ولا مثيل، يوم الأربعاء، خامس عشر شعبان سنة 1238 هـ من له العز والشرف، وصلى عليه العلامة الأسد الهائج فريد وقته الشيخ أحمد الدايج ودفن بعقبة بابا علي

من المعسكر فنسبت له العقبة وبها اشتهر، وعلى ضريحه قبة نفعنا الله به وأورثنا منه محبة وقرة (ناصر الدين سعيدوني، 1999: 461).

يعزز ذلك حمدادو بن عمر في مستهل بحثه حيث كتب (أما عن نسب أبي راس فتكاد تتفق حوله جل المصادر العربية والأجنبية). (حمدادو بن عمر، 2003 :55)، وهو ما يجعلنا نرجح شرف نسبه .

مولده:

اختلف المؤرخون حول تاريخ مولد أبي رأس الناصر، حيث انقسموا إلى رأيين . رأي يقول بمولده سنة 1150 هـ الموافق ل 1737 م (ناصر الدين سعيدوني، 1999: 460) (يحيى بوعزيز، 1995: 234) . في حين يتجه الفريق الثاني إلى القول بمولده عام 1165 هـ (أبو القاسم سعد الله، 1998 م: 377) (عبد الرحمن الجيلالي، 1982: 570) الموافق ل 1752 م، لكنهم أجمعوا على تاريخ وفاته سنة 1238 هـ الموافق ل 1823 م عن عمر يناهز السبعين عاما .

لعل هذا الإجماع على تاريخ وفاته يعود إلى الاستناد إلى كلمة التأبين التي قالها الشيخ محمد بن يوسف الزياني، حيث جاءت مفصلة باليوم والشهر والسنة: وهو يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان 1238 هـ .

ولما كان الإجماع على أن أبو رأس ناهز السبعين عاما ومواصلة إنتاجه الفكري إلى غاية نهاية حياته، حيث ألف آخر مخطوط له تحت عنوان (شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله علينا من التأليف) والتي انتهى منها قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط، حيث يذكر أبي رأس أن هذا المخطوط هو آخر تأليفنا، (ولو أطال الله عمرنا لزدنا) وانتهى منه يوم الاثنين 22 رجب (يحيى بوعزيز، 1995: 244).

فإذا كان القائلون بمولده عام 1165 هـ الموافق ل 1752 م، ويقرون بأن سنه ناهز السبعون عاما، فإن تاريخ وفاته يكون عندئذ عام 1842 م، بينها يتفق هؤلاء على أنه توفي عام 1823 م، وأن أبو رأس لم

يدرك الاحتلال الفرنسي للجزائر، أما المؤلف الذي نسب إليه (أقوال التأسيس عما وقع أو سيقع بين المسلميم والفرنسيين) فيقول يحيى بوعزيز أنها ليست من تأليفه، لأن أبي رأس توفي قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر ب08 سنوات، وهو رأي الشيخ المهدي البوعبدلي كذلك (يحيى بوعزيز، 1995: 244).

ومن ثم يكون أصحاب هذا القول قد وقعوا في تناقض مع أنفسهم بقولهم بمولده عام 1165 هـ، و وفاته عام 1238 هـ، وأنه توفي وهو يناهز التسعين سنة، لأنه بذلك يكون الشيخ محمد عبد الله أبو رأس قد توفي عن عمر يناهز 73 سنة .

وعليه يكون من الأرجح حسب رأينا أنه ولد عام 1150 هـ / 1737 م وأنه توفي عن عمر يقارب 88 سنة، وهو ما تؤكده سليمة بن عمر محققة الحلل السندسية حين تذكر أن الشيخ نفسه تحدث عن مولده فقال: (ولقد ولدت بعد المغرب ليلة الأحد، مستهل رجب الفرد وذلك سنة تسع وأربعين ومائة وألف (الناصر أبو راس، الحلل السندسية ص: 31) .

أما عن مكان ولادته، فهو بنواحي جبل كرسوط وهونت، في وادي تاغية بمنطقة تعرف اليوم ب (وزغت)، وهي منطقة غابية تحتضن اليوم سد وزغت، وتوجد بهذه المنطقة أغلب أضرحة أسرة أبي رأس الناصر (بن الحنفية عابدين، 2004: 25).

نشأته:

نشأ أبو رأس في بيت علم وصلاح، اشتهرت به أسرته منذ أن استوطن جدهم الأول عبد الجليل منطقة وزغت والمدفون بها، والذي يعتبر من الأولياء الصالحين.

رغم ذلك عاش فقيرا الحال يتيما بعدما فقد والدته زولة بنت السيد الشيخ اعمر بن عبد القادر التوجاني أثناء تنقل عائلته إلى متيجة ومنها انتقل إلى مجاجة صحبة والده الذي بقي بها عاكفا على القرآن وتعليمه

للرجال والصبيان، وتزوج والده هناك عدة نساء إلى أن توفي وقبره بروضة الشيخ أحمد بن عبد الله بأم الدروع (أبو رأس الناصر، 1990ص: 19).

وبعد وفاة والده تولى أخوه الأكبر ابن عمر كفالة أخويه محمد وعبد القادر، واتجه بهما صوب المغرب، وهو لا يزال في سن مبكرة حيث يقول أبو رأس:(أما أخي فيمشي، وأما أنا فيحملني على عاتقه لصغري) (أبو رأس الناصر، 1990ص: 33).

وقد قرأ القرآن الكريم وهو صغير على والده حتى قارب ختمه، وهو ما ينفي ما ذهب إليه كل من سعد الله وسعيدوني، حيث ذكر سعد الله أن أبا رأس انتقل بعد وفاة والده رفقة أخيه الأكبر منه سنا وأخوهما الذي كفلهما، والذي ذهب بهما إلى المغرب، وهو يقصد المغرب الأقصى، في حين يرى محمد بن عبد الكريم محقق مخطوط فتح الإله ومنته ... في تعليقه أنه يقصد بالمغرب غرب القطر الجزائري (أم عسكر) و (وهران) (محمد بن عبد الكريم الجزائري، 1990: 33)، وهو في اعتقادنا الأقرب بالنظر لما يتطلبه التنقل في مثل هذا السن المبكر من الإمكانيات، وما ينجر عنه من العناء والتعب لطول المسافة، وصعوبة الطريق إلى المغرب الأقصى.

أما حفظه القرآن الكريم بالمغرب الأقصى، فإن أبو راس قد قرأ القرآن الكريم وهو صغير على والده حتى قارب ختمه، وتتلمذ بعد ذلك على عدد كبير من علماء ومشايخ معسكر، أبرزهم: الشيخ منصور الضرير تلميذ أحد الشيوخ الراسخين في العلم أحمد بن ثابت { ت 1158 هـ / 1745 م }، وأتقن على شيخه منصور الضرير القرآن الكريم برواية قالون و ورش (أبو رأس الناصر، 1990: 33).

انتقل بعد ذلك إلى مازونة لتعلم الفقه حيث بقي بها ثلاث سنوات حفظ خلالها مختصر خليل كما درس لطلبته الفرائض منذ سنته الأولى، وأتقن في العام الثالث حفظ مصنف خليل حتى ذاع صيته، ليعود إلى موطنه معسكر وهو لا يزال يعاني من فقر الحال، فتتلمذ على يد شيخه عبد القادر المشرفي وختم عنده مصنف الشيخ خليل .

أبو رأس قاضيا ومدرسا:

كان لنبوغ محمد عبد الله أبو رأس تأثيرا إيجابيا في حياته، حيث تقلد أول وظيفة بعد التدريس في مراحل حياته، وهو في مرحلة التنشئة، إذ تولى القضاء بغريس على الشيخ محمد بن مولاي قاضي معسكر، وتذكر الشيخ نصيحة الإمام مالك لتلميذه الشافعي في وصيته لما قرر الرحيل قائلا:(لا تسكن الريف فيذهب علمك وتهتك حرمتك) (أبو رأس الناصر، 1990: 22) . رغم ظروفه القاسية إلا أنه لم ينقطع عن العلم، ورحل إلى المشايخ طلبا في علو الإسناد، حتى طار صيته وشدت إليه الرحال، وصار مرجع زمانه، ومتولي خطة القضاء بحاضرة أم عسكر، يفتي على المذاهب الأربعة (أبو رأس الناصر، ص: 15). وتأكيدا لذلك ذكر حمدادو أنه أسندت لأبي راس مهمة القضاء، وهي وظيفة دينية حسب النظم الإسلامية، حيث أن لها ارتباطات قوية بالدين وعلومه (حمدادو، 2003 : 80).

وفي معسكر، تفرغ الشيخ للتدريس، والتعليم مدة ستة وثلاثين عاما حتى أصبح عدد تلاميذه يقارب السبعمائة وثمانون طالب . فنال بذلك اهتمام الحكام وإعجابهم به فصنعوا له كرسيا يستعين به على الدرس، كما بنو له مكتبة المذاهب الأربعة (أبو رأس، 1990: 23 (عابدين بن حنفية، 2004: 31)، ولا سيما الباي محمد بن عثمان الكبير، يعزز ذلك سعد الله فيذكر أنه بعد إنهاء دراسته عاد إلى معسكر، سمع بالشيخ المشرفي فاتصل به وتتلمذ على يديه، وتأثر به كثيرا، ولازمه مدة من الزمن، ولما شعر بالاستقلال العلمي، انتقل إلى البادية، وتزوج هناك، وبدأ ينشر علمه الذي حصل عليه، كما تولى القضاء، وقد دام على هذه الحال سنتين ثم عاد إلى معسكر، لأنه أحس بضعف معلوماته في الريف، واستقر بمعسكر ستة وثلاثين سنة (سعد الله أبو القاسم، 1998: 460). وقد كتب محمد غانم في ذات السياق أنه – أبو راس – بعدما رجع إلى معسكر، شمر عن ساعديه للتدريس مدة ست وثلاثين سنة، فكان يورد درسه على التحقيق والتدقيق، ويرشحه بتتمة أو لطيفة مهمة أو تنبيه وجيه، أو تكميل وتذييل، إلى أن صارت

حضرته في العلم تذكر في الآفاق وتناظر دروس مصر والشام وتونس والعراق (غانم ، 2005 :180).

أما عن منهجه في التدريس فقد اعتمد الشيخ أبو رأس في دروسه على ذاكرته وحفظه، فكان لا يقطع دروسه إلا بعد أن يستوفي جوانبها، ويبدأ دروسه من (باب الاعتكاف) ولا يقوم منه إلا عندما يقف على (باب الزكاة) (أبو رأس، 1990: 25) .

اتسم بصرامة مع طيبته، حيث كان لا يسمح أن يقرأ في مجلسه إلا ما يمكن أن يفعله البعض خفية، وكان متوخيا في دروسه التدقيق والتحقيق أثناء رده على بعض الاعتراضات التي يبديها بعض الطلبة.

ولما كانت حلقات دروسه تطول كان يلجأ إلى بعض اللطائف ليرفه بها عن النفوس المتعة التي تسرب إليها الملل والفتور .

أصبح مجلسه العلمي وحلقات دروسه تخترق الآفاق، وتجاوز الأمصار، حتى أصبح مجلسه يضاهي مجالس العلم في مصر والشام وتونس والعراق، وفي هذا السياق ذكر سعيدوني ما يبرز مكانة الشيخ العلمية قائلا: (... وخلال هذه الفترة اشتهر بسعة اطلاعه، وكثرة تأليفه، ونظرا للدرجة التي بلغها رشحه شيخه المشرفي ليكون خليفة له في التدريس، وهذا ما يؤكد على قدرته وتضلعه في العلم) (سعيدوني ناصر الدين، 1999: 460).

العوامل المؤثرة في حياته:

إن دراسة شخصية مثل أبو رأس الناصر، وما تميز به من ثقافة واسعة لدرجة أن تلميذه أبو حامد المشرفي شبهه بأسد الفرات في غزارة علمه واطلاعه على المذهب المالكي (ناصر الدين سعيدوني، 1999: 462). كما قال عنه ابن سحنون الذي تتلمذ عليه بأنه متقن لجميع العلوم، عارف بالمذاهب الأربعة، لا يسأل عن مسألة إلا ويجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه (سعيدوني، 1999: 462).

وهذا ما تؤكده تأليفه الكثيرة التي بلغت المائة وستة وثلاثون مؤلفا (يحيى بوعزيز، 1995: 244). هذا القول يدفع بنا إلى التساؤل عن الظروف والعوامل المؤثرة في حياة أبي رأس الناصر .

نعتقد أن عوامل ثلاثة كانت حاسمة في تفجير ملكاته العلمية، وهي تأثير بيئته الأسرية، وشيوخه، ورحلاته في داخل الجزائر وخارجها مغربا ومشرقا .

- **بيئته الأسرية**: من البديهي أن يكون الوطن الراشدي – الذي نشأ فه الشيخ – فضاءا ثقافيا مزدهرا ومعطاءا أثر في الثقافة الجزائرية، ولا سيما الجهة الغربية منها، (حمدادو ، 2003 :57). كما ذكر أبو رأس عن أسرته أنها ظلت تعج بالعلماء ،فقد نشأ في بيت علم وصلاح، حيث فتح عينيه على والده معلم للقرآن الكريم ويقول عنه أنه كان من القراء الماهرين والأساتذة المشهورين، وجده الذي اعتبره أعجوبة الزمان في الولاية والصلاح . ويذهب هذا المذهب كل مرة يستعرض فيها نسبه حتى جده العاشر عبد الجليل الذي يوصف بأنه (الطيار) وصاحب (تنبيه الأنام)، وقد تولى جده عبد الجليل قضاء القيروان في عهد آخر ملوك الموحدين، كما عرفت أمه زولة بالسخاء والصلاح .

- **شيوخه:** يبدوا أن أهم ما يميز حياة الشيخ العلمية هو كثرة شيوخه، بحيث أفرد بابا خاصا بهم في مؤلفه (فتح الإله) سماه (في عدة أشياخي) عرض فيه أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم، فقد تلقى عبد الله محمد أبو رأس تعليمه على يد أبرز المشايخ الذين عاصرهم سواء في وطنه معسكر، حيث تعلم على يد مجموعة كبيرة منهم نذكر أبرزهم: والده الشيخ أحمد الذي قرأ عليه سورة البقرة حتى (تلك الرسل فضلنا)، ومنهم الشيخ التلاوي، والشيخ منصور الضرير الذي أتقن على يديه القرآن الكريم وأحكامه، ونهم عن الشيخ محمد بن مولاي وعلى بن سحنون، وعلي بن الشنين، والشيخ الموفق بن عبد الرحمن الجلالي، والشيخ المشرفي، والشيخ علي بن أحمد، كما تلقى على شيوخ مازونة أمثال: الشيخ ابن علي بن الشيخ ابن عبد الله المغيلي

الذي شبه أبو رأس حلقاته بحلقة الإمام (أحمد بن تيمية)، كما زار الجزائر حيث تعلم على شيخ الإسلام أحمد بن عمار عالم الجزائر، وخطيبها، وإمامها، ومفتيها، ومنهم الشيخ القاضي محمد بن جعدون، كما كانت له علاقات بعلماء قسنطينة أمثال محمد بن الفكون والحاج علي الونيسي (ناصر الدين سعيدوني، 1999: 461).

- **رحلاته:** تنقل الشيخ بوراس كثيرا سواء داخل بلاده الجزائر أو خارجها، وقد لعبت هذه الرحلات دورا كبيرا فيما وصل إليه أبو رأس من علم، حيث تعلم على شيوخ المغرب وتونس ومصر والشام والرملة وغزة والعريش .وفي غزة زار قبر هاشم – ثالث أباء النبي عليه الصلاة والسلام(أبو راس، 1990 : 23) . ثم زار الحجاز وحج مرتين- 1204 هـ / 1226 هـ- . وزار مكة والمدينة المنورة، حيث أخذ على شيوخها علم الحديث على الشيخ أعمات العلاف الينبعي، وقرأ شرح ابن عياذ على الشيخ عبد الرحمن التادلي، وقد أجازه الكثير من العلماء ولقبه علماء مصر بشيخ الإسلام أمثال الشيخ عبد الله الشرقاوي (أبو القاسم سعد الله، 1998 : 69).

يمكننا أن نستشف من هذه الرحلات قوة علم أبي راس، واعتزازه به ، إذ كان يناظر حيث حل ونزل، كما أن هذه الرحلات قد أكسبت أبا راس رصيدا معرفيا هاما (أبو راس : د.س.ط :19) يضاف لهذه العوامل ملكته العقلية التي ساعدته على استيعاب العلوم التي تلقاها على يد المشايخ وفي شتى دروب العلوم حتى لقب بالحافظ .

أدرك أبو رأس فضل شيوخه عليه فيما بلغه من علم، حتى انعكس ذلك على تأليفه حينما يتكلم عن شيوخه، فيذهب لوصفهم بالعلم والصلاح لدرجة تتجاوز الموضوعية (عابدين بن حنفية، 2004: 34)، وقد خصهم بمؤلف سماه (لب أفياخي في عدة أشياخي) (أبو القاسم سعد الله، 1998: 89).

مواقفه من قضايا عصره:

مختار بونقاب
mokhtar.boungab@univ-mascara.dz

عاش أبو رأس في عصر تجاذبته تيارات سياسية وعسكرية داخليا وخارجيا، وقد أثرت على مواقفه التي عكستها بعض مؤلفاته، فكان مثقفا متفاعلا مع ما يجري في وطنه الصغير الجزائر، و وطنه الكبير العالم العربي الإسلامي.

تأثر أبو رأس بما تعرضت له مصر من عدوان الفرنسيين النابوليونيين عام 1798 م، وفتح وهران، وفتنة درقاوة بالجزائر .

- موقفه من حملة نابليون على مصر 1798 م: أشار أبو رأس إلى هذه الحملة في مؤلفه فتح الإله ... وهو يتكلم عن عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر الشريف بقوله:(ولما دخل الكفرة مصر، ألزموا المسلمين المحبوب، وبطاقة، كان يدافع عنهم على قدر الجهد والطاقة، ولم يسأل نصحا، ولم يطودونهم ، بل كان سعي الكرام إلى أن فرج الله بعد ثلاثة من الأعوام) (عابدين بن حنفية، 2004: 57).

كما ذكرها في قصيدته الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، فقال:

مالت ملوكنا لحديث نعـــمتهم ** وأكلونا كأكل الواجــن العـــلس

وأعرضوا عن جهاد الكفر قاطبة** حتى ارتمت مصرنا العظمى بمرمس

وقال في شرحها " ومرادنا بذلك ما عرض لمصر بعصرنا هذا، في المحرم فاتح ثلاث عشر ومائتين وألف مع الفرنسية، فإنهم دخلوا إسكندرية عنوة بعدما أخذوا مالطة ...(وذكر أنهم دخلوا مصر في فاتح ربيع الأول من السنة المذكورة) إن عدو الله لما خلا له الجو من المنازع، وأيقن بأنه ليس له عن إقليم مصر دافع وذهب الصارخ الحادي، بحيث لا حياة لمن تنادي، سولت نفسه غزو عكا، التي هي إحدى قواعد الشام العظام ... ثم ذكر خروجهم من مصر سنة 1216 هـ (عابدين ين حنفية، 2004: 57).

- فتح وهران 1205 هـ: شاءت الظروف أن يتم فتح وهران بعد حصارها على يد الباي محمد الكبير، وأبي رأس الناصري في طريق عودته من الحج عام 1204 هـ، وبلغه خبر حصارها وهو في تونس، فاستعجل الرجوع والعودة للاشتراك في الجهاد، خاصة وأن هذا الفتح شارك فيه عدد كبير من العلماء قيل أنه بلغ خمسة آلاف، استشهد منهم الكثير، ومنهم شيخ أبي رأس الشيخ السنوسي بن السنوسي .

وقد أرخ الكثير من هؤلاء العلماء المجاهدين هذا الفتح، ومنهم أبو رأس الناصر الذي ألف منظومته التي امتدح فيها الباي محمد بن عثمان الكبير، فاتح وهران في مؤلفه (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) الذي انتهى من تأليفه بعد الفتح بأقل من خمسة أشهر .

- موقفه من ثورة درقاوة: ظهرت بالمغرب الأقصى، وانتقلت إلى الجزائر حيث اشتهرت بالجهة الوهرانية، وكان مقدمها عبد القادر بن الشريف الذي درس بمعهد القيطنة ثم انتقل إلى المغرب الأقصى ليعود إلى الجزائر ويؤسس الزاوية الدرقاوية التي أصبحت تتمتع بقوة نفوذها مما جعل باي وهران يتخوف من أتباعها، وقد اختلف في دوافعها، فبعضهم رأى فيها ثورة ضد الحكم العثماني المستبد والجائر، والبعض رأى فيها ثورة قومية وطنية تهدف إلى التخلص من العثمانيين، وقد امتد نفوذها إلى قسنطينة بقيادة ابن الأحرش .

أما أبو رأس فقد تناول هذه الفتنة وألف فيها كتابا سماه (درء الشقاوة في حروب درقاوة)، والتي تحدث فيها في سيرته، حيث قال: ثم عمتنا فتنة درقاوة، وإنا لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف: وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة (مع ما داهمنا من الطاعون الذي تهرب منه الواعون، فاتصلت علينا صراصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودع) (أبو رأس، 1990: 24، 25).

إلى أن يذكر وقد ناداني لسان الحال بقوله:(دع الدفاتر للزمان الفاتر... وقيل لي حق لك أن تبكي على العلم والجوامع التي كانت متوعة بذوى

النجابة والفهم، وعلى ذهاب أثره وقد ناح الغراب على وكره) (عابدين بن حنفية، 2004: 63).

ويتضح من خلال هذا القول أن أبا رأس عانى من ضيق العيش في هذه الفتنة، وأن موقفه من الموضوع لم يكن جليا، بل ينم عن حياد تجاه ذلك . رغم أن خصومه اتهموه بمناصرة الدرقاويين، وحتى المشاركة إلى جانبهم، وهو ما دفع ببعض الكتابات إلى إرجاع عزل أبي رأس من منصب القضاء إلى هذا السبب، يعزز هذه الفكرة مختار بونقاب حين يذكر(رغم موالات الشيخ بوراس للأتراك، إلا أنه لم ينج من آثار ثورة درقاوة، إذ عزل من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء ...). (بونقاب، 2002: 95) .

آثاره ومؤلفاته:

لعل أهم صفة تميز بها الشيخ أبو رأس في زمانه، كثرة التأليف وغزارة الإنتاج، وكثرة الإطلاع، وقد ذكر له هذا التفوق على غيره من التلاميذ، أبو حامد المشرفي، وابن سحنون، وقد سبقت الإشارة إليهما، وهؤلاء من تلامذته . ومن المؤرخين المحدثين ما أفرده على غيره من العلماء من حيث غزارة التأليف، حتى قال عنه سعد الله أبو القاسم أنه لم يضاهيه في غزارة التأليف سوى البوني ابن العنابي، و وصفه علماء المغرب الأقصى ولقبوه بالحافظ . وقد عدد له يحيى بوعزيز مائة وست وثلاثون مؤلفا في مختلف العلوم والفروع .

ألف أبو رأس آخر مؤلفاته قبل وفاته بثلاث أسابيع فقط ضمنها إنتاجه الفكري تحت عنوان (شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التأليف) (يحيى بوعزيز، 1995: 235). حيث ذكر أن هذا المخطوط هو آخر تأليفنا، ولو أطال الله عمرنا لزدنا، وقد انتهى منه يوم الاثنين 22 رجب عام 1238 هـ (يحيى بوعزيز، 1995: 244)، وهي السنة التي توفي فيها كذلك . وقد بلغ عدد ما ألف أبو رأس 136 مؤلفا صنفها يحيى بوعزيز على الشكل التالي:

نوع العلوم	عدد التأليف	نوع العلوم	عدد التأليف
علم التاريخ	34 مخطوط	الأدب	02
فن الشعر وشروحه	33	الأصول	02
علم القرآن الكريم	12	الجغرافية	01
الفقه	11	المنطق	01
التوحيد والتصوف	10	البيان	01
الحديث	08	في المعاني	01
النحو	05	في البديع	01
اللغة	03	في العروض	01
علم الفلك	03		

ومن بين مؤلفاته يلاحظ أنها كانت تجمع بين مختلف العلوم النقلية والعقلية، فشملت علوم القرآن الكريم، والفقه، والتوحيد، والحديث، والنحو، واللغة، والأدب، والفلك، والجغرافيا، ورغم هذا التنوع، فإننا نلاحظ أن أبا رأس كان يميل إلى التاريخ والأدب، حيث أنجز معظم أعماله .

ضاعت معظم كتابات الشيخ ولعل مرجع ذالك أنه كان له تأليفا في الأنساب أغضب به أناسا يعتبرون أنفسهم أشرافا لم يثبت لهم ذلك، إما بعدم ذكرهم فيه، أو بالنص على عدم ثبوت نسبهم، مما أدى إلى كراهية بعض هؤلاء لأبي راس والعمل على إتلاف كتبه (أبو رأس، 2004 : 21، 22). ولعل من أهم مؤلفاته التي كانت في حكم المفقود (الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات){ وهو مخطوط ضخم نادر، موجود لدى السيد زلماط مصلة – رئيس مصلحة بجامعة معسكر، ومهتم بتاريخ الأنساب – وهو الآن على وشك طبعه بعد الانتهاء من تحقيقه، يقع في مجلدين بحجم يقارب 1000 صفحة } (مقابلة الباحث للسيد زلماط مصلى في مكتبه بتاريخ: 25 أكتوبر 2021).

وفاته:

توفي الشيخ بوراس يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان 1238 هجرية ، الموافق ل 1823 ميلادية، بعد عمر قضاه في خدمة العلم والدين، وصلى عليه حوالي ألف وخمسمائة من الناس بإمامة تلميذه الأسد الهائج الشيخ أحمد الدايج الملقب بالخرشي الصغير، ودفن بزاويته ومدرسته المعروفة وسط مدينة معسكر .

الخاتمة:

حاولنا في هذه الورقة الوقوف على بعض جوانب حياة هذه الشخصية البارزة في تاريخ الذاكرة الثقافية للمجتمع الجزائري والتي خلفت آثارا قيمة في وقت وصف بجفافه الثقافي، وقد تبين أن العلماء في أي زمن يتفاعلون مع قضايا مجتمعهم، تجعل منهم رواد النخبة في أي مجتمع كان وتحت أي ظرف، ويصدق فيهم قول " العلماء ورثة الأنبياء " .

ومن الاستنتاجات التي يمكن الخروج بها نذكر:

- أن أبا رأس يعتبر من أبرز علماء العصر، وأنه اشتهر من بين الآخرين بغزارة إنتاجه، الذي ضاع الكثير منه .

- يمكن أن يكون أبو رأس عالما مصلحا نظرا للدور الذي لعبه في الحياة الثقافية، وكمعلم اشتهرت حلقاته وامتلأت بوفود الطلبة، إلى جانب الحظوة التي حضي بها بين علماء الجزائر، والمغرب، والمشرق، وحتى بين حكام الجزائر، بخاصة الباي محمد الكبير .

- يعد الشيخ عالما له بعده وفكره الإسلامي، ومرشدا بأفكاره ومواقفه .

- غير أن ما يؤسف له، ضياع الكثير من المؤلفات التي خلفها، أو إحجام من يملكها على إظهارها واستغلالها، ودراسة محتوياتها، فالكثير من ذاكرتنا يبقى أسير مخطوطات قيمة لم تر النور في وقت يتجه فيه غيرنا إلى محاولة العبث بذاكرتنا مستخدمين جميع وسائل الإغراء لاقتنائها، كما علمنا من بعض أصحاب الخزائن الخاصة التي

تحتفظ بمخطوطات ومؤلفات هامة، وكما نسمع عن مؤسسات ثقافية عالمية تجري وراء اقتناء هذا التراث الحضاري، بل إن البعض منها أخذ ولم يسترجعه أصحابه .

- إن الدراسات البيوغرافية المتصلة بتاريخ الأعلام والعلماء تبقى الإطار العلمي الأكاديمي لتجميع تاريخ الجزائر وإعادة قراءته وكتابته بعيدا عن أية نزعة ذاتية .

غير أن معظم هذه الدراسات اقتصر في اعتقادنا على ترجمة لحياة أبي رأس الناصر وبعض آثاره العلمية، أما دراسة شاملة لتراثه الفكري، ومواقفه من قضايا العصر، فتبقى تشكل مجالا خصبا للدراسة والبحث .

المراجع:

ابن حنفية عابدين، أبو رأس الناصري المعسكري حياته وتصوفه من كتابه الحاوي، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2004 .
بوعزيز يحيى، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995 .
بونقاب مختار، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران: 2001 / 2002 .
التلمساني، أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم الجزائري، القاهرة: عالم الكتاب، 1969 .
الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982 .
حمدادو بن عمر، أبو راس الناصر المعسكري 1155 – 1238 هـ / 1737 – 1823 م، ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران: 2002 / 2003 .
سعد الله أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981 .
سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول 1500 – 1830، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998 .

مختار بونقاب
mokhtar.boungab@univ-mascara.dz

سعيدوني، ناصر الدين، والشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني، الجزء الرابع، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984 .
سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي:تراجم مؤرخين، ورحالة وجغرافيين، الطبعة الأولى، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999.
غانم محمد ، أبو راس المعسكري : مسار عالم جزائري وإنتاجه الفكري، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران ،العدد : 12 ، السة : 2005 .
الناصري، أبو راس، نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع، دراسة وحقيق: تقي الدين بوكعبر، وهران: منشورات نداء للتراث، دون سنة الطبع .
الناصري، أبو راس، صحائف الأخبار ذات التأسيس فيما يقع بين المسلمين والفرنصيص، مخطوط بالمكتبة البلدية، معسكر، يقع في 06 أوراق
الناصري، أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وتعليق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.
الناصري، أبو راس، الكوكب الدري في الكلام على الجدري، تحقيق: بوكعبربلقرد، سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2004 .
الناصري، أبو رأس محمد، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بمكتبة الشيخ محمودي البشير، بلدية البرج، ولاية معسكر .
مقابلة الباحث للسيد زلماط مصلى – رئيس مصلحة بجامعة معسكر، ومهتم بتاريخ الأنساب – في مكتبه بتاريخ: 25 أكتوبر 2021 صباحا .

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
ISSN: 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 19 عدد: 01 جوان 2023
العنوان: من علماء الجزائر الشيخ أبو راس الناصر... ص.ص 712- 733.

أبو رأس الناصري / مخطوط الآيات البينات في شرح دليل الخيرات

المصدر: المخطوط

الورقة الأولى

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
ISSN: 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 19 عدد: 01 جوان 2023
العنوان: من علماء الجزائر الشيخ أبو راس الناصر... ص.ص 712- 733.

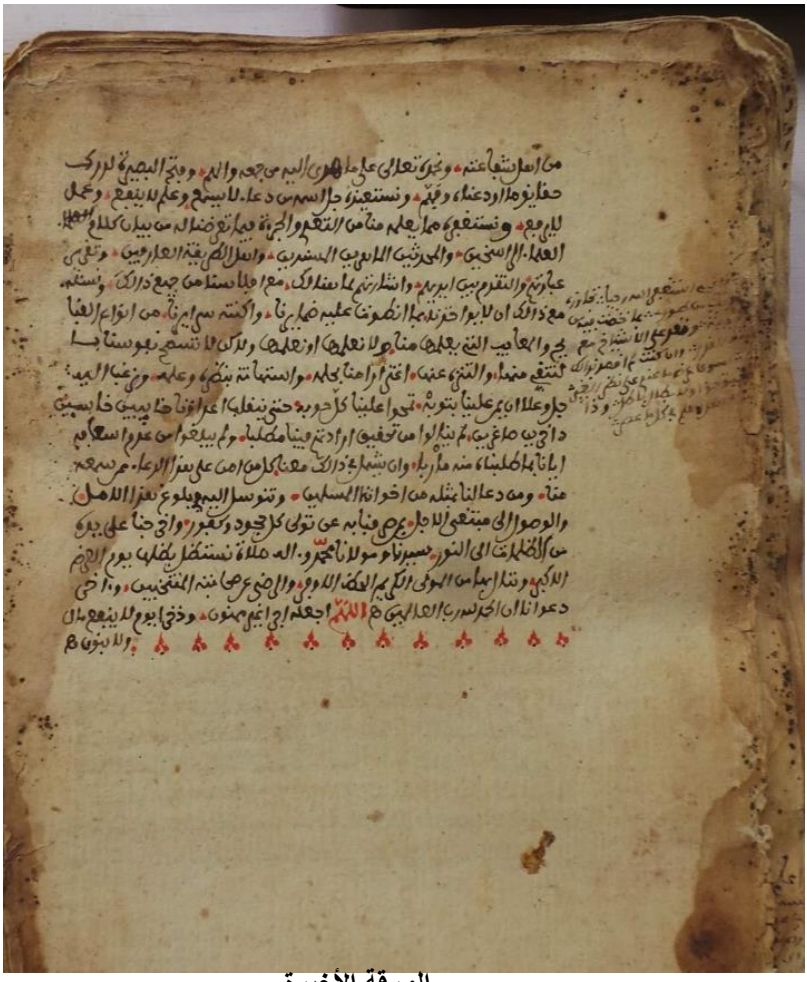

الورقة الأخيرة

للإحالة على هذا المقال:
- مختار بونقاب، (2023)، «من علماء الجزائر الشيخ أبو رأس الناصر المعسكري: 1737 / 1823 م». **المواقف**، المجلد: 19، العدد: 01، جوان 2023، ص. ص 712- 733.